الحزن

الحزن، مشتق من الحَزَن باللغة العربية، ويعني: الغم، الكدر، الغصة. ويستعمل الصوفيون هذه الكلمة ضد الفرح والابتهاج والسرور، ويصح أن نقول إنه همّ ذو بُعدٍ مشوب بالشعور بالمسؤولية، والتفكر في أمور الدعوة، وأسىً في السعي لبلوغ الغاية. نعم، إن من كان كامل الإيمان -حسب درجته- إنما يتحرك ويسكن بالحزن، لحين تطلق الروح المحمدية الندية أجنحتها في أرجاء المعمورة، وتهدأ آهات المسلمين وزفراتهم، ويصبح القرآن الكريم حياةً للحياة كلها. وفي حدود الإنسان؛ لحين مروره من حفرة القبر بأمان، واجتيازه عقبات البرزخ واحدة تلو الأخرى بسلام، من دون عائق في الحساب والميزان، حتى يتمكن من التحليق إلى الروح والريحان وميدان طيران الأرواح... فينسج بالحزن حياته على خيوط الزمان، بل يحشره حتى بين دقائق نشوته وحبوره. والخلاصة: أنه يجعل الحزن ملح حياته، فيشعر به في ثواني حياته بل في ثوالثها وعاشراتها، ويستمر بهذا الانكسار المقدس إلى أن يبلغ الحقيقة المبشّرة في قوله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ﴾ (فاطر:٣٤).

الحزن ينبع من إدراك الإنسان لإنسانيته، وكلما كان في مستوى هذا

الشعور يترشح الحزن في بصره وفي بصيرته. وفي الحقيقة إن فاعلية مثل هذا الحزن ضرورية جداً من حيث دوام توجّه الفرد إلى الله سبحانه، والاحتماء بحمايته كلما استشعر بما يثير لديه الحزن، والالتجاء إليه كلما عجز عن شيء لا يقدر عليه، فيستغيث: النجاة... النجاة.

ومن جهة أخرى، فإن المؤمن الذي عمره قصير، وقدرته قليلة، ومطالبه باهظة، ومضطر أن يجعل الواحد ألفاً.. إذا غدا الحزن بُعداً ورفيقاً للأمراض التي تتعرض له، وللعوائق والضائقات التي تعرقل سيره، وللمصائب والنوائب التي تصيبه.. تتحول هذه كلها إلى إكسير عجيب يُذهب الذنوب ويمحو الخطايا. حتى يستطيع الإنسان أن يجعل بهذه الوسيلة الشيء المؤقت أبدياً، والقطرة بحراً، والذرة شمساً. نعم، يصحّ أن نقول إن عمراً يمضي هكذا في ألوان من الحزن هو عمر نبوي مبارك. وكم هو ذو مغزى عميق -من هذه الزاوية- إطلاق اسم "نبي الحزن" على فخر الإنسانية ﷺ -أرواحنا فداه- الذي كان متواصل الحزن دائم الفكر، قضى حياته كلها بدقائقها و ثوانيها بتلونات الحزن.[1]

الحزن حِميً، يُحول دون تشتت جهاز قلب الإنسان وعالم مشاعره في وديان الغفلة، وسورٌ يحفظ الارتباط الوثيق بالحق تعالى، وبهذا يكون الحزن طريقاً لا مناص منه إلى التركيز، بحيث إن السالك الحزين، بفضل التوجّه الاضطراري هذا، يمكنه أن ينال من المراتب في الحياة القلبية والروحية وفي أقصر وقت، ما يعجز عنه الآخرون في "خلوة الأربعين" مهما تكررت.

---

١) انظر: المعجم الكبير للطبراني ١٥٦/٢٢، شعب الإيمان للبيهقي ١٥٥/٢. لتعلم كيف كان الرسول ﷺ دائم الحزن.

إن الله سبحانه لا ينظر إلى الصوَر ولا إلى الأجسام وإنما ينظر إلى القلـــوب، ومن القلوب ينظر إلى القلوب الحزينة المكدرة المنكسرة، فيشرّفها بمعيته، كمـــا يذكّرنا به الحديث القدسي: (أَنَا عِنْدَ الْمُنْكَسِرَةِ قُلُوبُهُم).[1]

قال سفيان بن عينية: (لو أن محزوناً بكى في أمةٍ، لَرحم الله تلك الأمـــة ببكائه)[2] لأن الحزن يترعرع وينبت في جوانب الإخلاص والجديـــة مـــن القلب، فلا طور بين الأطوار كالحزن، يقرّب الإنسان إلى الله ويكفّه عـــن باب الفخر والرياء والسمعة.

إن لكل شيء زكاته، وزكاة الشيء تطهّره وتصفّيه مما يكدره. فـــالحزن زكاة الدماغ والوجدان، وله بالغ التأثير في صفائهما وفي بقائهما زكـــيين طاهرين.

وقد جاء في التوراة: (إذا أحب الله عبداً جعل في قلبه نائحة، وإذا أبغض عبداً جعل في قلبه مزماراً).[3]

وقال بشر بن الحارث الحافي: (الحزن مَلِك، فإذا ما سكن في موضـــع لم يرض أن يساكنه أحد).[4] وكما إن لم يكن في بلـــد ســـلطان أو حـــاكم خرب، ودبّت فيه الفوضى، كذلك إن لم يكن في القلب حزنٌ وهمٌّ خرب وتبعثر. أليس حال مَن هو أتم القلوب عمراناً كان حزناً دائمـــاً وتفكـــراً مستمراً ؟

---

١) كتاب الزهد للبيهقي ١٦٢/٢؛ كتاب الزهد لابن أبي عاصم ٧٥/١. كشف الخفاء للعجلوني ٢٣٤/١.

٢) الرسالة للقشيري ٢٣١.

٣) الرسالة للقشيري ٢٣٠.

٤) الرسالة للقشيري ٢٣٠.

لقد اجتاز سيدنا يعقوب عليه السلام الجبال والقفار التي بينه وبين يوسف عليه السلام بأجنحة الحزن، حتى بلغ أجواء تأويل الرؤيا العذبة. وبهذا عُدّ أنينُ فؤاد مليء بالحزن والأسى عِدلاً لأوراد العبّاد وأذكارهم، وتقوى الزهاد وورعهم.

فلئن كانت الهموم والأحزان النابعة من تقلبات دنيوية -فيما خلا من المعاصي والآثام- كفّارة للذنوب، كما بشّر به الصادق المصدوق ﷺ.[1] فكيف إن كانت ذات بُعد أخروي وفي سبيل الله؟

هناك حزن ناشئ عن ملاحظة نقائص الإنسان في عباداته وطاعاته وخشية تقصيره في عبوديته لله، وهذا هو حزن العوام.. وحزن آخر نابع من ميل القلب ومحبته لما سواه تعالى وتعثر المشاعر في التوجه إليه، وهذا حزن الخواص... وهناك حزن آخر هو أن إحدى قدمي المحزون في عالم الناسوت والأخرى في عالم اللاهوت، فيسعى بقلب يقدّر كلاًّ من العالَمَين حق القدر فيوفي حقّ الموازنة بينهما معاً مراعياً التمكين. وحتى في سعيه هذا تنتابه الخشية هل أنه أفسد الموازنة أم لا؟ فيئن أنيناً حزيناً ويطلق الحسرات.. وهذا هو حزن الأصفياء.

إن أول نبي، وهو أبو البشر، وأبو النبوة، كان أباً للحزن أيضاً. فما أن انتبه للحياة حتى فتح عينيه للحزن، حزن الضعف في عزمه مع ما في ميزان النبوة من تمكين، حزن الجنة المفقودة، حزن الوصال الذي ضاع، حزن الفراق الذي تعرّض له. فلقد أنّ طوال حياته أنيناً موجعاً على هذه الأحزان.

سيدنا نوح عليه السلام، وجد نفسه في معصرة الحزن بمجرد تقلّده مهمة

---

١) انظر: البخاري، المرضى ١؛ مسلم، البر ٥٢، المسند للامام أحمد ١٥٧/٦.

النبوة. وإن موجات الحزن التي كانت تموج وتعلو في صدره تعدل موجات المحيطات العالية... وإذا في يوم من الأيام فجّر منبع حزنه الأرضَ والمحيطات إلى ذرى الجبال، وخيّمت على الأرض ظلمات الحزن. وإذا به يصبح نبي الطوفان.

وسيدنا إبراهيم عليه السلام كأنه قد صُمم للحزن، حزن المجادلة العنيفة مع النمارذة، حزن التحول في أروقة النار، حزن ترك الأهل والأولاد في واد غير ذي زرع، حزن الأمر بذبح الولد.. وأمثالها من سلسلة الأحزان ذات الأبعاد الملكوتية المخالفة لقياس العقل.

سيدنا موسى، سيدنا داود، سيدنا سليمان، سيدنا زكريا، سيدنا يحيى، سيدنا المسيح عليهم السلام تعرفوا على الحياة سلسلة أحزان وحسرات، وعاشوها هكذا... ولا سيما سيد الأنبياء والمرسلين نبي الحزن ﷺ ومن اتبعه....

﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالإِيمَانِ وَلا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلاًّ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾.

وصلّ وسلّم على سيدنا محمد الرؤوف الرحيم وعلى آله وصحبه أجمعين.

الخوف والخشية

يرد الخوف بمعانٍ عدة في اللغة العربية منها: الرهبة، الوَجَل، الهيبة. وفي المعنى الاصطلاحي: اجتناب العمل بما هو أدنى من الحرام من الممنوعات ناهيك عن الحرام. وقد تلقى الصوفية الخوف - بجانب شعور "الرجاء"- عنصر موازنة في السير والسلوك المعنوي، وإكسيراً معدّلاً لما يسوق من الأفكار إلى الإدلال والشطحات. ذلك لأنه يحُول دون انخداع السالك إلى طمأنينة الأمن، ودون تلبّسه بالأوهام والأماني.

ويرى القشيري: أنه شعور في الأعماق يجنّب السالك عما لا يحبه الله ولا يرضاه. وأكّد على تأثيره في المستقبل، فقال: "الخوف معنى متعلَّقُه في المستقبل، لأنه إنما يخاف أن يحلَّ به مكروه أو يفوته محبوب. ولا يكون هذا إلاّ لشيء يحصل في المستقبل".[1]

وفي الحقيقة أن القرآن الكريم أيضاً بكثير من آياته البيّنات إنما يلفت الأنظار إلى عاقبة الأعمال وما تؤول إليه الأطوار، مستهدفاً دنيا تقوم على وفق المستقبل. فالدنيا التي يريد القرآن إقامتها، يمكن رؤية المستقبل فيها بثمراته الطيبة والخبيثة، روحاً ومعنى وفكراً وبجزئياته. فهو يغرس في ضمير

---

١) الرسالة للقشيري ٢١٤.

منتسبيه وفي وجدانهم شدة الخوف من العقبى طوال حياتهم، مذكّراً إياهم أن يثبتوا أقدامهم ولا ينحرفوا، خشية تغيّر الأحوال ﴿وَبَدَا لَهُمْ مِنَ اللهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ﴾ (الزمر:٤٧) ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً ۞ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ (الكهف:١٠٣-١٠٤) وأمثالهما من الآيات الكريمة التي تلقى الرهب والوجل في القلوب، بل كأنها خيوط سدى غيبية مزجاة إلينا من العقبى لينسج الإنسان عليها نسيج حياته.. -وما أسعد مَن ينسج نقوش حياته بمكّوك لُحمته وسداه أخروية- فيواصل القرآن الكريم بها تلقيناته الأخروية لقلوبنا، مسدداً أنظارنا دائماً نحو العقبى.

والله سبحانه وتعالى كثيراً ما يرد في بيانه النيّر، الخوف كسوط لأجل أن يجلبنا إلى حضوره ويشرّفنا بمعيته. هذا السوط أشبه ما يكون بعتاب الأم الذي يدفع الطفل ليلجأ مرة أخرى إلى حضنها الحنون، كذلك الخوف يجذب الإنسان إلى رحاب رحمة الله الواسعة ويثريه بواردات ألطافه الجبرية، المفاضة عليه من غير استشراف لها. ولهذا فكل أمر في القرآن الكريم مظللٍ بالخوف والخشية، إنما يرد بألوان الرحمة ويورث الانشراح رغم ما يبدو عليه من بُعدٍ مخيف رهيب.

وكذلك فإن الوجدان الخائف من الله والخاشع له، ينجو من خوف الآخرين، ذلك الخوف القاسي الذي لا يدفعه إلى جانب الرحمة ولا فائدة ترجى منه، بل هو خوف مضر. وللحيلولة دون تشتت الشعور بالخوف المدرج في ماهية الإنسان، وتوجيهه إلى هدف واحد، يبعث الله سبحانه في

هذه القلوب الأمل بآياته الكريمة في مواضع عدة كقولـــه تعـــالى: ﴿فَـــلا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ (آل عمران:١٧٥)، و﴿وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ﴾ (البقرة:٤٠، النحل:٥١) مذكراً لهم بعدم الولوج في أي رهب لا مبرر له. فضلاً عن أنه سبحانه يثني على القلوب العامرة بالخوف والمتميزة بالخشية بقولـــه: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ (النحـــل:٥٠) و﴿يَـــدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ (السجدة:١٦) ذلك لأن الروح التي نسجت حياتها وفق مقتضيات الخوف تستعمل إرادتها بالتمكين، وتتقدم بخطوات حـــذرة، ولا تطأ موضعاً هشاً ومزلقاً فاسداً. فمثل هذه الأرواح الحساسة الرهيفة تحلّـــق عالياً في سماء الرضى الإلهي. وما أجمل ما يقرره "صاحب اللُجّـــة" حـــول الخوف في البيت الآتي:

بَاش دَر دِين ثَابِت اَرْتَرسِي زِقَهرِ حَق كه پَا

كَرده مُحكَم دَر زَمين عَرعَرنيم صَرصَراست

يعني: إن كنت تخاف قهر الرب الجليل فكن راسخ القـــدم في الـــدين، فالشجر لا يثبت أمام الرياح الهوج إلاّ بعروقه الموغلة في الأعماق.

والخوف على مراتب. فأدنى مراتبه: هو الخوف الذي هو من شـــروط الإيمان ومقتضاه، كما يشير إليه قوله تعالى: ﴿وَخَافُونِ إِنْ كُنْتُمْ مُـــؤْمِنِينَ﴾ (آل عمران:١٧٥).

وأعلى منها مرتبة هي مرتبة الخشية ذات الطابع العلمي كمـــا في قولـــه تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ (فاطر:٢٨).

وأعلى منها مرتبة هي مرتبة الهيبة المطبوعة بالمعرفة، كما في قوله تعالى: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ اللهُ نَفْسَهُ﴾ (آل عمران: ٣٠).

هذا وقد قسّم قسمٌ من الصوفية الخوف إلى: الهيبة، الخشية، وكلتاهما نابعتان من الخوف ولكن الهيبة هي مدار "الفرار" بينما الخشية تدور حول "الالتجاء". فصاحب الهيبة في سيره وسلوكه يعيش دوماً بمفهوم "الفرار" وبه يتحرك ويسكن ويتخيل. بينما صاحب الخشية يعيش كل لحظة بمفهوم آخر بحثاً عن وسائل الالتجاء إليه تعالى منقّباً عن فرص الاحتماء به.

ولهذا فالذين اختاروا مسلك الرهبة كثيراً ما يديمون الفرار أيضاً، لذا يعسّرون اليسير فيتعرضون إلى ما تعرض له الرهبان من الضيق والحرج والعنت. ولهذا يقاسون من "البُعد" عنه تعالى بمقدار البُعدية الحاصلة من الفرار. بينما سالكو الخشية الذين يعيشون في كل لحظة من لحظات حياتهم محوّلين الهوى إلى الهدى، هم في مفرق طريق آخر كل حين للالتجاء إليه تعالى، فيشربون من كوثر "القُرب" طالبين المزيد باشتياق.

والخشية بمعناها الكامل من خواص الأنبياء عليهم السلام. فهم يموتون روحاً واحدة ويحيون بقوة أرواح كثيرة، لكأنهم في جو يُسمَع فيه صور إسرافيل وأمام صولة جلال الحق سبحانه وعظمته. ففي آفاق أحاسيسهم وشعورهم وإدراكهم يرن صدى: ﴿فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا﴾ (الأعراف:١٤٣) فتشرق هذه الحقيقة وتغرب. وأقرب المقربين وسيد الخاشين ﷺ يقول: "إِنِّي أَرَى مَا لا تَرَوْنَ وَأَسْمَعُ مَا لا تَسْمَعُونَ أَطَّتِ السَّمَاءُ وَحُقَّ لَهَا أَنْ تَئِطَّ مَا فِيهَا مَوْضِعُ أَرْبَعِ أَصَابِعَ إِلاّ وَمَلَكٌ وَاضِعٌ جَبْهَتَهُ

سَاجِدًا لله وَاللهِ لَوْ تَعْلَمُونَ مَا أَعْلَمُ لَضَحِكْتُمْ قَلِيلاً وَلَبَكَيْتُمْ كَثِيرًا وَمَا تَلَذَّذْتُمْ بِالنِّسَاءِ عَلَى الْفُرُشِ وَلَخَرَجْتُمْ إِلَى الصُّعُدَاتِ تَجْأَرُونَ إِلَى اللهِ".[1]

هذا الحديث الشريف يبين شدة خشيته ﷺ لله تعالى المنطوية على الالتجاء – مع علمه بما لا يعلمون– واختياره الالتجاء إليه تعالى بدلاً من الفرار، ويوضح أيضاً هيبة الآخرين المتسمة بالفرار حيث عبّر أبو ذر ﷺ بإضافته: "لَوَدِدْتُ أَنِّي كُنْتُ شَجَرَةً تُعْضَدُ"[2] وغدا ترجماناً بليغاً لهذا المعنى.

فذو الروح المنظَّم وفق الخشية والهيبة لا يقترف الآثام ولو لم يكن خائفاً... فها هو صهيب الرومي ﷺ مثال المهابة وبطل العصمة. يصفه الرسول ﷺ : (نِعْمَ الْعَبْدُ صُهَيْبٌ لَوْ لَمْ يَخَفِ اللهَ لَمْ يَعْصِهِ).[3]

إن أرباب الخوف يتألمون ويتوجعون، وأحياناً أخرى تنهمر منهم الدموع سيلاً مرات ومرات في اليوم ولا سيما عند انفرادهم؛ فيطفئون بدموعهم نار "البُعد" ويمضون إلى إطفاء نار جهنم وهي أقصى الأبعاد عن الله، كما في الحديث الشريف (لا يَلِجُ النَّارَ رَجُلٌ بَكَى مِنْ خَشْيَةِ اللهِ حَتَّى يَعُودَ اللَّبَنُ فِي الضَّرْعِ)[4] بمعنى أنه محال دخوله النار. ويعني أيضاً أن الدموع أعظم إكسير لإطفاء نار جهنم.

وهم أحياناً يمحّصون ما قدموه من أعمال وما تركوه فتقشعر جلودهم مما قدّموه ربما هو ليس لله بل للهوى، وما تركوه ربما هو شيطاني محض،

---

١) الترمذي، الزهد ٩؛ ابن ماجة، الزهد ١٩.

٢) الترمذي، الزهد ٩؛ المسند للامام أحمد ١٧٣/٥.

٣) كشف الخفاء للعجلوني ٤٢٨/٢-٤٢٩. وانظر أيضاً: المسند للديلمي ٢٣٤/١؛ فتح الباري لابن حجر ١٦١/١.

٤) الترمذي، فضائل الجهاد ٨؛ النسائي، الجهاد ٨؛ المسند للامام أحمد ٥٠٥/٢.

فيتجرعون الحزن باستمرار. ويعزمون على تقويم أنفسهم ملتجئين إلى الله تعالى.

ومثال ذلك حديث أمنا عائشة رضي الله عنها. قَالَتْ سَأَلْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ عَنْ هَذِهِ الآيَةِ ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾ قَالَتْ عَائِشَةُ أَهُمِ الَّذِينَ يَشْرَبُونَ الْخَمْرَ وَيَسْرِقُونَ ؟ قَالَ: لا يَا بِنْتَ الصِّدِّيقِ وَلَكِنَّهُمِ الَّذِينَ يَصُومُونَ وَيُصَلُّونَ وَيَتَصَدَّقُونَ وَهُمْ يَخَافُونَ أَنْ لا يُقْبَلَ مِنْهُمْ ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ﴾.[1]

وأظن أنه لو أطلقنا على الذين ذُكروا مقدماً عامة المؤمنين، نطلق على مَن في القسم الثاني: الناس الكاملين.

نعم إن خفقان القلب بالخوف والخشية أسلم من سلوك العبد بين الخوف والرجاء مع أنه الأصل كما يقول أبو سليمان الداراني.[2] ويؤيد "الشيخ غالب" هذا القول فيورد في هذا البيت ملخص مشاعره نحو الخوف:

"هيّج القلبَ بألف خوف وخوف"

اللّهم أيّدنا بروح من عندك ووفّقنا إلى ما تُحب وترضى،

وصلّ وسلم على محمد المرتضى وعلى آله وصحبه أجمعين.

---

١) الترمذي، تفسير سورة المؤمنون؛ ابن ماجه، الزهد ٢٠.

٢) "ينبغي للقلب أن لا يغلب عليه إلاّ الخوف، فإنه إذا غلب الرجاء على القلب فسد القلب" (الرسالة للقشيري ٢١٨).

الرجاء

الرجاء هو ترقب خير وأمل الحصول عليه.. واستشراف ألطاف الله وآلائه.. والامتلاء بالأمل لأجل المستقبل والعيش به لنيل المأمول. وقد عرّفه الصوفية بـ"تعلق القلب بمحبوب سيحصل في المستقبل".[1] وعلى هذا فالرجاء انتظار قبول الحسنات والأمل في غفران المعصيات بالتوبة.

والرجاء الذي يستند إلى أساس تحمّل الشخص تبعات ما اقترفه من سيئات وارجاع الحسنات إلى محض الرحمة الإلهية، هذا الرجاء يحُول بين السالك وبين الوقوع في شِباك قسم من الأخطاء والسيئات وما لا يليق من الأمور، كما يحجبه عن الاغترار بالحسنات والخيرات. لذا فهو سياحة دائمة في أُفق "السير إلى الله" هرباً من الشرور واحتماءً بالخيرات، بجناحَي الاستغفار والدعاء.. وتشبثٌ مستمر بمطرقة باب الحق تعالى بلسان الإنابة والتضرع في إقليم "السير مع الله". فإذا ما وفّق السالك إلى إقامة مثل هذا التوازن، فلا إياس ولا انقطاع في الخوف، كما لا رخاوة ولا شطحات في الرجاء.

نعم، إن انتظار العناية من الله تعالى، هروباً من الآثام، والسعي المتواصل في طريق الحسنات والخيرات كالمتسابق فيها، ثم التوجه إلى ذلك الباب

---

١) الرسالة للقشيري ٢٢٢.

السامي، وترقّب عظيم رحمته تعالى، لهو رجاء صادق، وهو أُفق أمل الصادقين. وبخلافه فإن توقع الثواب والمغفرة من دون عمل، أو التخبط طوال العمر في وديان الضلالة ثم التحدث عن "بحبوحة الجنة"، كمن يجبر الله سبحانه -حاش لله- على أمور وفق الآمال، لهو رجاء كاذب واستخفاف برحمة الرحمن الرحيم.

هذا والرجاء ليس تمنياً، إذ التمني هو تصور غير مقطوع فيه، بل توقع خائب لا أمل فيه. بينما الرجاء هو بذل الجهد، لدى جميع أبواب الالتجاء بالانتفاع من جميع الوسائل التي يمكن أن توصل إلى المطلوب، ببصيرة وشعور منوّر بنور النبوة لاستمطار الرحمة الإلهية.

والرجاء بتعبير آخر، هو ترقّبٌ لقسم من توجهات سبحانية أحدية الطابع، إيماناً بشمولية الرحمة والمغفرة وإحاطتهما بكل شيء كما هي في الصفات الجليلة: العلم والقدرة والإرادة. واعتقد أن القرآن الكريم في قوله تعالى ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ (الأعراف:١٥٦) وكذا الحديث القدسي:(إِنَّ رَحْمَتِي سَبَقَتْ غَضَبِي)[1] يذكّراننا بهذه الحقيقة. إذ خلافها ذنب لا يغتفر؛ مما يعني من عدم الاهتمام بهذه الرحمة الواسعة التي تنتظرها حتى الشياطين،[2] وفقدان الشعور بالرجاء، يعني إنكار تلك الرحمة ضمناً، والوقوع في اليأس.

يحلّق "محمد لطفي أفندي" قلباً حول جود الكريم الودود سبحانه، بحثاً عن طرق الالتجاء إليه تعالى فيقول:

---

١) البخاري، التوحيد ٥٥، ٢١٥؛ مسلم، التوبة ١٤-١٦؛ ابن ماجة، الزهد ٣٥.

٢) المعجم الكبير للطبراني ١٦٨/٣؛ المسند للديلمي ٣٦٦/٤.

جد بكرمك يا سيدي الكريم ولا تحجبه عن المحرومين

فهل يليق بمن هو واسع الجود والكرم حجبه عن المفتقرين؟

فهؤلاء الذين نالوا مثل هذه الحظوة بملاطفة الرب الكريم الخاصة، قد غنموا كنزاً لا ينفد أبداً. والرجاء يصبح برقاً ويغدو براقاً للإنسان.. فيضيء طُرُقَه وينوّر سُبُلَه، ويوصله إلى ما لا يوصل إليه قطعاً بجهد البشر وطاقته، وخاصة في أثناء معاناة وجدانه انكساراً وقلقاً لفقده لما يملك، أو نزول نازلة به، أو لا يوفق إلى خير، أو عجزه عن النجاة من شر.. أي في أثناء سقوط جميع الأسباب وانعطاف جميع الطرق إلى "مسبّب الأسباب".

نسجّل هنا هذه الأبيات ذات المغزى العميق للإمام الشافعي ﷺ، الذي عبّر عن الرجاء في أيامه الأخيرة التي قضاها في غزة:

ولمّا قَسا قَلبي وضاقتْ مَذاهبي جَعَلْتُ الرَّجا لِعَفْوِكَ سُلّما

تَعَاظَمَني ذنبي فَلمّا قَرَنْتُه بعفوِك ربّي كان عفوُك أعظما[1]

إن استنشاق "الخوف" من الله باستمرار، فيما يجنّب الإنسان الذنوبَ والمعاصي ويوجّهه إليه تعالى ويقرّبه منه، مع الاستمساك بـ"الرجاء" لدى الوقوع في حفر اليأس وظهور أمارات الموت، يعدّ مقياساً لحالة التوازن بين الخوف والرجاء... وكذا فإن تهييج عناصر الخوف تجاه الشعور بالأمان الحاصل في الروح، والاحتماء بمراتع أخبية الرجاء لدى هبوب عواصف اليأس الحزينة، وجهٌ آخر للتوازن بين الخوف والرجاء. وعلى هذا يمكن

---

١) ديوان الشافعي للشافعي ١٠٠؛ سير أعلام النبلاء للذهبي ١/١٥٠.

أحيانا أن يتصاعد دخان الخوف بجنب أكمل الأعمال، كما يمكن أن يبزغ الرجاءُ يمين عمل يسير ويساره.

نسجّل هنا تضرع يحيى بن معاذ على هذه الرؤية:

قال يحيى بن معاذ: "يكاد رجائي لك مع الذّنوب، يغلبُ رجائي لك مع الأعمال، لأني أجدني أعتمد في الأعمال على الإخلاص، وكيف أصفّيها وأحرِزُها ؟ وأنا بالآفات معروف. وأجدني في الذنوب أعتمد على عفوك، وكيف لا تغفرها وأنت بالجود موصوف".[1]

والرجاء لدى الكثيرين بُعدٌ آخر لحُسن الظن بالله. والحديث القدسي (أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي)[2] يعبّر عن هذه الملاطفة الخاصة.

رُؤيَ أبو سهل في المنام على هيئة حسنة جداً، وسُئل: يا أستاذ بماذا نلتَ هذا؟ فقال: "بحُسن ظني بربي".[3]

ولهذا يصح أن نقول: لما كان الرجاء وسيلة لتجلي الرحمة الإلهية الواسعة، فلا ينبغي على الإنسان في جميع أحواله خيراً أو شراً أن يدع هذه الوسيلة.

نعم، إن عمل الإنسان وإخلاصه وتجرده وإيثاره يُعدّ أبعاداً مهمة من الحسنات، إلاّ أنها من حيث علاقتها بالإنسان تظل غير ذات أهمية تذكر

---

١) الرسالة للقشيري ٢٢٤؛ إحياء علوم الدين للغزالي ٤/١٥٣؛ مدارج السالكين لابن القيم ٢/٣٦-٣٧.

٢) البخاري، التوحيد ١٥؛ مسلم، التوبة ١؛ الترمذي، الدعوات ١٣٢.

٣) الرسالة للقشيري ٢٢٥؛ احياء علوم الدين للغزالي ٤/ ١٥٣.

بجنب عظيم عفوه سبحانه، ذلك لأن الأول يعدّ عمل الإنسان وأطواره من زاوية دائرة الأسباب الظاهرية، بينما الثاني تقابله مباشرة الرحمة السابغة لشأن الله الجليل الخاص وملاطفته الكريمة.

ومن هنا فإن الخوف والرجاء أعظم هديتين لله سبحانه تعالى إلى قلب الإنسان، ولا أجلّ منهما إلاّ رعاية الموازنة بين هذين الشعورين، وكيفية استعمالهما كجناحين نورانيين للوصول إلى الله سبحانه.

اللّهم أحسن عاقبتنا في الأمور كلها،

وأجرنا من خزي الدنيا وعذاب الآخرة.

وصلّ وسلّم على من أرسلته رحمة للعالمين وعلى آله وأصحابه أجمعين.

الزهد

الزهد هو ترك المتع الدنيوية، ومقاومة الميول الجسمانية.. ويرد لدى الصوفية على الأكثر: العزوف عن لذائذ الدنيا، وإمرار العمر بعيش أشبه ما يكون بالحِمية، مع اتخاذ "التقوى" أساساً للسلوك، والحزم باستغناء واستنكاف تجاه وجه الدنيا المتوجه إليها وإلى النفس الإنسانية.

ويمكن أن نرجع إلى التفسير السابق معنى آخر، هو أن الزهد: ترك راحة الدنيا الزائلة لأجل سعادة العقبى الباقية.

إن أُولى خطوات الزهد هي الحساسية المرهفة تجاه الحلال والحرام، أما الخطوة الثانية وهي المرحلة الكاملة فهي العيش بدقة متناهية وحساسية شديدة تجاه المباحات والأمور المشروعة.

أما "الزاهد"، فهو الصابر -حق الصبر- تجاه المسؤوليات التي تحمّلها.. وتجاه البلايا والمصائب التي تنزل به.. وتجاه الذنوب والمعاصي التي تعترض طريقه في كل زاوية؛ مع الرضا بكل ما قدّره الخالق الكريم له سوى الكفر والضلال.. وهو الذي غاية خياله ومبتغى مناه في جعل ما أنعم عليه مولاه، لكسب رضاه سبحانه، والفوز في الآخرة، وتوجيه الإنسان إلى الحقيقة المطلقة.. فترنّ في أذن قلبه دائماً حقيقة: ﴿قُل مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالآخِرَةُ خَيْرٌ

لِمَنِ اتَّقَى﴾ (النساء:٧٧)، وتشعّ في كل جزء من أجزاء دماغه حقيقة: ﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللهُ الدَّارَ الآخِرَةَ وَلا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا﴾ (القصص:٧٧) ويستشعر في كل زاوية في أفق البصيرة بالبيان الإلهي: ﴿وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاّ لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ (العنكبوت:٦٤).

هذا وقد عرّف آخرون الزهد بأنه الحفاظ على حدود الشرع وحمايتها حتى في أوقات الضيق والشدة، والعيش لأجل الآخرين في أوقات الغنى والرخاء. والشكر على ما أنعم الله عليه من حلال، وإيفاء ما يترتب عليه من حق، وعدم جمع المال إلاّ لنفع الناس، وإعلاء شأن الإسلام، وعدم الولوج في طول الأمل.

وقد قال سفيان الثوري وأمثاله من عظماء السلف: إن الزهد عمل قلبي نُظّم وفق مرضاة الحق سبحانه وانغلق دون طول الأمل، وإلاّ فليس بأكل الغليظ ولا بلبس العباء.[1] وحسب هذا المفهوم فإن أمارات الزهد الحقيقي ثلاث:

١. أن لا يفرح من الدنيا بموجود، ولا يأسف منها على مفقود.

٢. أن لا ينسرّ بالثناء ولا يحزن على الذم.

٣. أن يفضل العبودية لله سبحانه والخلوة معه على أي شيء آخر.

نعم، الزهد كالخوف والرجاء، عمل قلبي، إلاّ أنه يتميز عنهما من حيث انعكاس حس الزهد على أحوال الإنسان وسلوكه و من ثم توجيهها، وهذا هو البُعد العملي والسلوكي للزهد.

---

١) حلية الأولياء لأبي نعيم ٣٨٦/٦؛ الزهد الكبير للبيهقي ١٠٢/٢؛ الرسالة للقشيري ٢٠٣.

إن الصدر المتشبع بالزهد، يفكر بالزهد في جميع أحواله التي قد يتعارض بعضها مع البعض، وسواءً تعلق شعوره به أم لا، ففي الأكل أو الشرب، وفي النوم أو اليقظة، وفي الكلام أو السكوت، وفي تعقب الخلـــوة أو البقـــاء في الجلوة.. في كل هذه الأحوال يستنشق الزهد، يعيش متلوناً به، حتى يراه في الرؤى والمنام.. وبعد كل هذا يتخذ موقفاً جاداً تجاه وجوه الدنيا المتوجهـــة إلى هواه وإلى زخرف الدنيا.

وما ألطف ما ترنم بهذا الشعور مولانا الرومي:

چِسْت دُنْيا اَزْ خُدَا غَافِل بُودَن

نِي قُمَاش و نُقرَه وُفَرْزَندوُزَنْ

مَال رَاكَز بَهْرِ حَق بَاشِي حَمُول

(نِعْمَ مَالٌ صَالِحٌ)[1] گُفت آن رَسُول

آب دَر كَشْتِي هَلاَكِ كَشْتِي است

آب اَنْدَر زِيرِ كَشْتِي پُشْتِي است[2]

أي: ما الدنيا؟ الدنيا هي الغفلة عن الله. وليست قماشاً ولا فـــضة ولا أولاداً ولا نساء. فلو أنفقت متع الدنيا كلها في سبيل رضـــاه لقـــال لـــك الرسول الكريم ﷺ (نِعْمَ الْمَالُ الصَّالِحُ). الماء الموجود في الـــسفينة ســـبب هلاكها بينما الذي تحتها سبب سيرها.

---

١) (نِعْمَ الْمَالُ الصَّالِحُ لِلْمَرْءِ الصَّالِحِ) انظر: المسند للامام أحمد ١٩٦/٤؛ البخـــاري، الأدب المفـــرد ١١٢؛ الصحيح لابن حبان ٦/٨.

٢) مثنوي معنوي لمولانا جلال الدين (فارسي) ج١/ص٥٣/ب٩٨٣-٩٨٤-٩٨٥.

نعم، لا تمنع إمكانات الدنيا وغناها الزهد. كفى بالإنسان أن يكون حاكماً عليها لا محكوماً لها. ولقد فضّل فخر الإنسانية ﷺ عيش المساكين، وأمضى عمره بالزهد[1] رغم أن قلبه مفطور على الزهد ولم يدخل في نظر خياله غير الزهد؛ وفضّل العيش كأفقر ما يكون، ذلك لأنه موضع القدوة لأمته ولا سيما للذين يتحمّلون مهام نشر الحق، وهو بهذا الخيار:

أولاً: لا يدع مجالاً لتهمة استغلال وظيفة النبوة المقدسة لأجل الدنيا.

وثانياً: يبين عظمته وسموه في هذه الوظيفة المقدسة باقتدائه بأسلافه من الأنبياء والمرسلين في قوله (إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى اللهِ).

وثالثاً: أنه كان يحمل مسؤولية القدوة والمرشد لعلماء أمته الذين تعهدوا بنشر الحق. ولهذا كان لا بد أن يقضي حياته المباركة على أفقر ما يكون... وقد قضاها هكذا.

وقد أفاد البوصيري وأجاد وصف استغنائه ﷺ مع الحاجة، وعلو همته مع الضرورة فقال:

وَشَدَّ مِنْ سَغَبٍ أَحْشَاءَهُ وَطَوَى
تَحْتَ الْحِجَارَةِ[2] كَشْحًا مُتْرَفَ الْأَدَمِ
وَرَاوَدَتْهُ الْجِبَالُ الشُّمُّ مِنْ ذَهَبٍ
عَنْ نَفْسِهِ فَأَرَاهَا أَيَّمَا شَمَمِ

---

١) انظر: البخاري، الرقائق ١٧؛ مسلم، الزهد ١٨، ٣٦؛ الترمذي، الزهد ٣٥؛ المسند للامام أحمد ٢٥٤/٥.

٢) انظر: البخاري، المغازي ٢٩؛ مسلم، الأشربة ١٤٣.

وَأَكَّدَتْ زُهْدَهُ فِيهَا ضَـــرُورَتُهُ

إِنَّ الضَّـــرُورَةَ لاَ تَعْدُو عَلَى الْعِصَمِ

وَكَيْفَ تَدْعُو إِلَى الدُّنْيَا ضَرُورَةُ مَنْ

لَوْلاَهُ لَـــمْ تَخْرُجِ الدُّنْيَا مِنَ الْعَدَمِ

هذا وقد قيل في الزهد أقوال جميلة قيمة، إلاّ أننا نختم هـــذا الفـــصل بكلام سيدنا علي ﷺ الذي يصفع به كذب توهم الأبدية ويقطـــع دابـــر طول الأمل:

اَلنَّفْسُ تَبْكِي عَلَى الدُّنْيَا وَقَدْ عَلِمَتْ

أَنَّ السَّـــلاَمَةَ فِيهَا تَرْكُ مَا فِيهَا

لاَ دَارَ لِلْمَرْءِ بَعْدَ الْمَوْتِ يَسْكُنُهَا

إِلاَّ الَّتِي كانَ قَبْلَ الْمَوْتِ بَانِيهَا

....

أَمْوَالُنَا لِذَوِي الْمِيرَاثِ نَجْمَعُهَا

وَدُورُنَـــا لِخَرَابِ الدَّهْـــرِ نَبْنِيهَا

كَمْ مِنْ مَدَائِنَ فِي الْآفَاقِ قَدْ بُنِيَتْ

أَمْسَتْ خَرَابًا وَدَانَ الْمَوْتُ دَانِيهَا

لِكُلِّ نَفْسٍ وَإِنْ كَانَتْ عَلَى وَجَلٍ

مِـــنَ الْمَنِيَّةِ آمَـــالٌ تُقَوِّيهَا

فَالْمَرْءُ يَبْسُطُهَا وَالدَّهْرُ يَقْبِضُهَا

وَالنَّفْسُ تَنْشُرُهَا وَالْمَوْتُ يَطْوِيهَا[1]

اللّهم أرنا الحق حقاً وارزقنا اتّباعه وأرنا الباطل باطلاً وارزقنا اجتنابه، آمين يا أرحم الراحمين.

وصلّ وسلّم على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين.

١) ديوان أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام ١٠٤.

التقوى

التقوى تأتي من جذر الوقاية، والوقاية هي فرط الصيانة، وقد عرّفت في الاصطلاح الشرعي بأنها: "جهد الامتثال لأوامر الله واجتناب نواهيه، تجنباً من عذابه".

وبجانب المعنى اللغوي والشرعي للتقوى، ترد أحياناً بمعنى الخوف، ويرد الخوف بمعنى التقوى أحياناً، حتى يمكن مشاهدة المعنيين معاً في الكتب الشرعية.

وكذلك للتقوى معنى شامل وعام إلى حد أنه يَشْغَلُ مساحة واسعة جداً من المعاني؛ فمن المحافظة على آداب الشريعة بكل دقة وأمانة.. إلى رعاية قوانين الشريعة الفطرية.. إلى وقاية الإنسان سرّه وخفيّه وأخفاه من الشرك وكل ما يُشم منه الشرك عند كل سلوك يؤدي به إلى جهنم، أو كل عمل يثمر ثماراً في الجنة.. وإلى الوقاية من التشبه بالآخرين في التفكير وطرز الحياة.

وبهذا المعنى الواسع جداً تصبح التقوى هي المصدر الوحيد لقيمة الإنسان وكرامته، وقد أشارت إليه الآية الكريمة المنّورة ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللهِ أَتْقَاكُمْ﴾ (الحجرات:١٣).

إنني لم أرَ للتقوى في غير القرآن الكريم هذا المعنى الشامل وهذا العمق والسعة، كما أنني لم أطلع على كلمة ساحرة كهذه الكلمة خارج نظام

الإسلام الأخلاقي والتربوي وبهذا المستوى الذي يضم المادة والمعنى معاً، حتى أن جذوره موغلة في الدنيا وأعضاءه وأزهاره وثمراته منتشرة في العقبى.

نعم، إن في معنى التقوى ومحتواها سحراً عجيباً بحيث لا يمكن فهم القرآن فهماً حقاً، إلاّ بعد الاحتماء بها، كما لا يمكن الوصول إليها إلاّ بالسير في فلك القرآن، الذي يفتح قبل كل شيء بابه للمتقين ويهمس بهم، ﴿هُدًى لِلْمُتَّقِينَ﴾ (البقرة:٢) ويشير في النتيجة إلى الحياة على نمط الفرقان الحكيم، ويلفت الأنظار إلى أُفق ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ (البقرة:٢١).

والتقوى أفضل عمل عند الله سبحانه وتعالى، و المتقون هم أكرم عباده وأنزههم، والفرقان البديع البيان هو أصفى بيان للمتقين وأنزه دعوة للتقوى. وعباد الله المتقون يتزوّدون دوماً من القرآن وبرؤية الرضوان في الآخرة. وحيث إن الذوق الوجداني هنا واللذة الروحانية هناك، تضيف موهبة أخرى لعمق التقوى، يقول تعالى مذكّراً بأهمية التقوى بهذا المعنى ﴿اتَّقُواْ اللّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ﴾ (آل عمران:١٠٢).

والإنسان بفضل التقوى التي تعني تقييم جميع وسائل الخير ويبقى موصد الأبواب في وجه جميع طرق الشر أو يسعى في ذلك، ينجو كذلك من السقوط إلى أسفل السافلين، ويغدو سائراً إلى أعلى عليين. وبهذا يصح أن يقال: إن من نال التقوى فقد نال ينابيع الخير واليمن والبركات كلها. فدونكم شاهداً آخر:

دِين وُ تَقْوَى رَا خُدَايَا هَر كِه دَادْ

هَسْت اُو اَنْدَر دُو عَالَم بَر مُراد

هَر كِه مَرد پَارْسَا وُمُتّقِيست

اُو سَعِيد وُرَسْتگَارَست نِي شَقِيست

هَر كِه اوُ رَا نِيسْت اَز تَقْوَى شِعَار

هَســـتِئ او نِيست غَير اَز شَيْن وعَار

نِيست زِندَه دَر حَقِيقَت مُرده است

غَيْرَ اَز آن كِه رَهْ بَحَضرَتْ بُرده است

يعني: فاز بمراده في الدنيا والآخرة مَن أكرمه الله بالدين والتقوى. مـــن كان متقياً ناصراً للحق سعيد لا شقي وهو على الصراط الـــسوي. بينمـــا المحروم من زاد التقوى والفقير إلى أماراتها، وجوده عار وخزي وعيب، بـــل ميتٌ مَن لم يجد طريقاً إلى الحق سبحانه.[1]

التقوى كنـــز لا يقدّر بثمن، وجوهر بلا نظير يعتلي أفضل موقع لأغنى كنـــز، ومفتاح ذو أسرار لفتح جميع أبواب الخير، وبراق في طريق الجنـــة. ولأجل موقعها المتميز هذا تسيل مائة وخمسين مرة حزم مـــن ضـــياء زلال القرآن الكريم في أدمغة أرواحنا.

والتقوى، مقابل هذا الاستعمال العام، لها معنى خاص معلوم لدى الجميع حيث يتوارد إلى الذهن ذلك المعنى كلما قيل "التقوى". والمعنى هو: شـــدة الحساسية تجاه أوامر الشريعة ونواهيها. واجتناب ما يحرم من الثواب أو مـــا يعاقب عليه من سلوك. وقوله تعالى: ﴿وَالَّـــذِينَ يَجْتَنِبُـــونَ كَبَـــائِرَ الإِثْـــمِ

---

١) "گولشنِ توحيد لمولانا جلال الدين الرومي (تركية)".

وَالْفَوَاحِشَ﴾ (الشورى:٣٧) يمثّل جانباً مهماً من هذا الأساس، ويمثل الجانب الآخر: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ﴾ (البقرة:٢٧٧). فإقامة الفرائض واجتناب الكبائر أساسان ضروريان جامعان للتقوى. أما الصغائر فإن أحاديث نبوية كثيرة جداً تذكّر بالدقة أيضا تجاه "اللمَم" المذكورة في القرآن الكريم، منها: (لا يَبْلُغُ الْعَبْدُ أَنْ يَكُونَ مِنَ الْمُتَّقِينَ حَتَّى يَدَعَ مَا لا بَأْسَ بِهِ حَذَرًا لِمَا بِهِ الْبَأْسُ).[1]

نعم، الإخلاص التام، لا يُحرز إلاّ باجتناب كل ما فيه شائبة الشرك، كما لا تُنال التقوى الكاملة إلاّ باجتناب الشبهات كلياً، ذلك لأن الحديث الشريف الجامع: (الْحَلالُ بَيِّنٌ وَالْحَرَامُ بَيِّنٌ وَبَيْنَهُمَا مُشْتَبِهَاتٌ لا يَعْلَمُهَا كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ)[2] قد ربط الحياة التي هي في مستوى القلب والروح باليقظة ودقة الاحساس تجاه المشتبهات. والحديث يذكر أن الحلال والحرام قد وضّحا من قبل صاحب الشريعة بما لا يدع مجالاً لأية شبهة. ولكن بين هذين الأمرين ما يشبه الاثنين من الأمور المشتبهة لا يعلمها كثير من الناس. ولأجل هذا لا بد من اجتناب مثل هذه المشتبهات. ومن اتقى الشبهات فديْنُه وعرضُه مصونان، بينما الذي وقع في الشبهات فاحتمال وقوعه في الحرام كبير،كالغنم التي ترتع حول الحمى. ثم يقول سيد الأنام ﷺ: (أَلا وَإِنَّ لِكُلِّ مَلِكٍ حِمًى أَلا إِنَّ حِمَى اللهِ فِي أَرْضِهِ مَحَارِمُهُ أَلا وَإِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ أَلا وَهِيَ الْقَلْبُ).

---

١) الترمذي، القيامة ١٩؛ ابن ماجة، الزهد ٢٤.

٢) البخاري، الإيمان ٣٩؛ مسلم، المساقاة ١٠٧.

وعلى هذه الأسس يمكننا أن نقول: لا تُنال التقوى التامة إلاّ باجتناب المشتبهات وصغائر الذنوب. وهذا الاجتناب يتطلب قبل كل شيء معرفة دقيقة بالحلال والحرام ويستند بعد ذلك إلى معرفة صحيحة محكمة وثقافة وجدانية. وعندما يصل الأمر إلى هذه النقطة: فـ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللهِ أَتْقَاكُمْ﴾ (الحجرات: ١٣) وكذا الآية الكريمة ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ (فاطر:٢٨) كأنهما قطبان في هذه المسألة، فالتقوى تنقلب إلى أصالة وكرامة ويتسربل العلم بالاحترام والخشية ويرفرف كالراية. فالأرواح التي تجمّل قلبَها وسرَّها بهذه الألوان ﴿أُوْلَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى﴾ (الحجرات:٣) يُذكرون كأبطال في امتحان الالتفاتات الإلهية.

والتقوى التي هي في قطب العبادة والطاعة، يُفهم منها على الأغلب: الصفاء الداخلي، وعمق القلب والضمير، وسعة الإخلاص، والموقف الجاد الحازم تجاه الذنوب والمشتبهات ضمن دائرة المعصية. وبهذا يصح أن نعدّ ما هو مدرج أدناه أبعاداً أخرى للتقوى حسب تنوع العبودية:

فالتقوى:

١. أن يتجنب العبد عما سوى الله عز وجل بحسب ذواتها.[1]

٢. ويوفي أحكام الدين حقها.

٣. ويتحرز من كل سلوك في دائرة الأسباب يوقعه في الجبرية، ومن كل انحراف في دائرة القدرة يدفعه إلى الاعتزال.

---

١) نذكّر القارئ الكريم بأن لكل شيء ثلاثة وجوه وجه إلى الله ووجه إلى الآخرة ووجه إلى ذات الشيء.

٤. ويحذر من كل ما يبعد عن الله سبحانه.

٥. ويكون يقظاً تجاه الحظوظ النفسانية التي تمهّد للمنهيات.

٦. وليعلم أن كل شيء من الله وحده مادياً كان أو معنوياً، دون أن يملّك نفسه شيئاً.

٧. وألاّ يجد نفسَه أرفع وأفضل من أيِّ أحد.

٨. ويجعل رضاه سبحانه غاية مناه لا غير.

٩. وينقاد انقياداً تاماً لمقتدى الكل ﷺ.

١٠. ويجدد حياته الروحية والقلبية باستمرار بالتفكر في الآيات الكونية وتدبّرها.

١١. ويجعل رابطة الموت بأبعادها المختلفة دستوراً للحياة.

والخلاصة: التقوى كوثر، والمتقي هو السعيد الذي وَرد هذا النبع العظيم، ولكن كم هو مؤلم أن هؤلاء المحظوظين قليل عددهم.

ونختم الموضوع بقول أحد شعرائنا:

يقول الحق تعالى كونوا عباداً متقين

فمقامهم الجنة وشرابهم الكوثر

اَللّهم اجعلنا من عبادك المخلِصين المخلَصين المتقين، آمين.

وصلّ وسلّم على سيدنا محمد إمام المتقين وآله وأصحابه ذوي اليقين.

الورع

في المعاجم والقواميس يرد الورع بهذه المعاني: تجنب ما لا يليق ولا يلائم ولا يلزم من الأمور، والحذر من المحرمات والممنوعات.. واجتناب الشبهات خوفاً من الوقوع في المحرمات. وهذا مطابق للقاعدة الإسلامية (دَعْ مَا يَرِيبُكَ إِلَى مَا لا يَرِيبُكَ)[1] ولحقيقة الحديث الشريف (الْحَلالُ بَيِّنٌ وَالْحَرَامُ بَيِّنٌ).[2]

وقد عرّف بعض الصوفيين الورع بأنه: صحة اليقين.. استقامة السلوك.. وعلو الهمة والتمكين في العلاقة مع الله سبحانه.

وقد عرّفه أحد أرباب القلب: "عدم الغفلة عن الله ولو طرفة عين" وآخر قال: "الكف عما سواه تعالى في كل لحظة من لحظات الحياة" وقال آخر: "أن يترفع السالك على نفسه وعلى الوجود كله ولا يتذلل ولا يتنزل إلى الدنيا وأهلها حالاً ولا لساناً". والبيتان الآتيان يفيدان هذه الرؤية:

تَوَرَّعْ عَنْ سُؤَالِ الْخَلْقِ طُرًّا وَسَلْ رَبًّا كَرِيمًا ذَا هِبَاتِ
وَدَعْ زَهَرَاتِ الدُّنْيَا كَاللَّوَاتِي تَرَاهَا لاَ مَحَالَةَ ذَاهِبَاتِ

---

١) الترمذي، صفة القيامة ٦٠؛ النسائي، الأشربة ٥٠؛ المسند للامام أحمد ١٥٣/٣.

٢) البخاري، الإيمان ٣٩؛ مسلم، المساقاة ١٠٧، ١٠٨.

ويمكن أن نعرّف الورع بأنه وقف الحياة والسلوك على ما يلزم في الآخرة وينتهي إليها، ومن ثم التحرك وفق إدراك حقيقة الفانيات الزائلات، ولعل الحديث الشريف يذكّر بهذه القاعدة: (إِنَّ مِنْ حُسْنِ إِسْلامِ الْمَرْءِ تَرْكَهُ مَا لا يَعْنِيهِ).[1]

وصاحب "بند عطار" يضفي شيئاً نفيساً بأسلوبه العطارى على هذا الفكر:

تَرسْكَارِي اَزْ وَرَعْ پَيْدَا شَوَدْ
هَرْ كِه بَاشَدْ بِي وَرَعْ رُسْوَا شَوَدْ
بَا وَرَعْ هَرْكَسْ كِه خُودْ رَا كَرْدْ رَاستْ
جُنْبُشُ و آرَامَشْ اَزْ بَهرِ خُدَاستْ
آنْ كِه اَزْ حَقْ دُرُسْتِي دَارَدْ طَمَعْ
دَرْ مَحَبّتْ كَاذِبَشْ دَانْ بِي وَرَعْ

يعني: الخوفُ من الله ينشأ من الورع، يفتضح يوم القيامة المحروم من الورع، وقوفه وقيامه وحركته وسكوته لله من استقام على الورع. كاذب في محبته من يطمع في ولاية الحق من دون ورع.

الورع عمل عام لإيفاء حق العبودية بأبعادها الظاهرية والباطنية. وسالك الورع عندما يحول في الذرى التي يبلغها بالتقوى، فهو بظاهره ينسج حياته رقاً لا عتق له للأوامر والنواهي... إذ "يعمل لله، ويبدأ لله"[2] يسكن لله

---

١) الترمذي، الزهد ١١؛ ابن ماجة، الفتن ١٢.

٢) الكلمات، الكلمة الأولى لبديع الزمان سعيد النورسي.

ويتحرك لله، يأكل لله، يشرب لله، يتحرك ضمن دائرة "لله، لوجه الله".[1]

ومن جانب آخر يجعل باطنه مسقط تأثير "حظيرة القدس" ويختلي بـ"الكنز المخفي" الذي في قلبه فيكفّ كلياً عن الأغيار. بمعنى يبتعد كلياً عن كل الأفكار التي لا توصل إليه سبحانه.. ويُدبر عن كل رؤية لا تذكّره به.. ويسد أذنه عن كل بيان -إن كان بياناً- لا ينطق به.. وينفض يده عن كل ما لا قيمة له عند الله. فالورع بهذا المعنى يرفع الإنسان عمودياً إلى الله.

وقد أوحى الله سبحانه إلى موسى عليه الصلاة والسلام: "لم يتقرب إليّ المتقربون بمثل الورع والزهد".[2]

وتعرّفت الإنسانية بالورع بخير القرون، حتى أصبح في زمن التابعين وتابعيهم غاية المنى لكل مؤمن. ففي هذا العهد جاءت أخت بشر الحافي إلى الإمام أحمد بن حنبل وقالت: إنا نغزل على سطوحنا، فتمر بنا مشاعل الظاهرية (عمال الدولة)، ويقع الشعاع علينا، أفيجوز لنا الغزل في شعاعها؟ فقال أحمد: مَن أنتِ عافاك الله تعالى؟ فقالت: أخت بشر الحافي، فبكى أحمد، وقال: من بيتكم يخرج الورع الصادق، لا تغزلي في شعاعها.[3]

وكذا في هذا العهد كان أحدهم يستغيث ويصرخ بـ"ذنبي ذنبي" طوال العمر لتعلق نظره بحرام مرة. وفي هذا العهد أيضاً تُستفرغ المعدة من لقمة

---

١) انظر: "اللمعات، اللمعة الثالثة، النكتة الثالثة" لبديع الزمان سعيد النورسي.

٢) الورع لابن أبي الدنيا ٤٧؛ الرسالة للقشيري ١٩٧.

٣) حلية الأولياء لأبي نعيم ٣٥٣/٨؛ القشيري، الرسالة للقشيري ١٩٦؛ صفة الصفوة لابن الجوزي ٥٢٥/٢-٥٢٦.

حرام دخلت دون علم ولأجله يُستفرغ الدمع أياماً.[1]

يروي أحد أولئك الأبطال وهو المحدّث الكبير والفقيه العظيم والزاهد الشهير ابن المبارك أنه رجع من مرو إلى الشام ليعيد قلماً استعاره فلم يرده على صاحبه.[2] وليسوا نادرين من عزموا على وقف أنفسهم لخدمة من يعتقدون أن لهم حقاً عليهم. والزاهد المشهور فضيل بن عياض هو أحد روّاد هذا الميدان. وكم من أبطال مثله في تلك الدنيا الوضيئة.. وتزخر كُتب الأولياء والطبقات والمناقب بحياة أمثال هؤلاء الدرر الذين تفوق حياتهم حياة الروحانيين.. وما هذه الصفحات المتواضعة إلاّ للتذكير بهم.

اَللّهم حَبِّب إلينا الإيمان وزيّنه في قلوبنا

وكرّه إلينا الكفر والفسوق والعصيان واجعلنا من الراشدين،

وصلّ وسلّم على سيدنا محمد وآله وأصحابه المهديين.

---

١) الورع للامام أحمد ٨٤-٨٥؛ كتاب الزهد لابن أبي عاصم ١٠٩، ١١١؛ شعب الإيمان للبيهقي ٥/٥٦.

٢) الرسالة للقشيري ١٩٨.